المستعين بالله . . . الكابتن هاردى

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تنعقـد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه ... وكلما علمت أن غارة روّعت سكان القاهرة أو الإسكندرية وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجـدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحـدة القاسية ومما يحيط بى من بيئة جديدة علىّ فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهيـة ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بهـا ، أغالب الوحـدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل علىّ الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سـوءاً على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنـوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهممت : أممكن هذا ؟

وفضضت الغـلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على

الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

« أيهذا الصديق العزيز

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر . وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى لك على غير طائل استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب ، وإنى مخبرك بمقامى فى الحسين ، وامتداد إقامتى فترة . فإذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى قاهرة المعز ، فزرنى بدارى « مغنى الرشيد » نتناول أقداحاً من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب . ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيك .

أخوك المستعين بالله ، هاردى — كابتن بالجيش »

وطافت برأسى شتى الذكريات . . . المستعين بالله . . . المستر هاردى . . . بل الكابتن هاردى . . . صديقى المستشرق الإنجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق وللإسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .

وتوضحت لى على الفور صورة ذلك الصديق الكريم : قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان يروعان بصفائهما الشفاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها فصاحة اللفظ ولكنها لا تخلو من عجمة محببة .

وتوالت الذكريات والصور . . . حى الحسين . . . جولاتنا فى أسواقه نبتاع الطُّرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى الشاى الأخضر . . . وكان من عادة صديقى أن يتسمع فى هذه النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها فى دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطى والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق . . . وداره ، ذلك المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع

الشرق الجميل . . . وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر فى العام بعد الأعوام . وأقرب عهدى به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عنى أخباره حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل .

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهاباً والرسالة فى يمينى . وقد هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رقاق قضيتها ناعم البال خلىّ الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عينى على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدى ، حتى أخذت عينى عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة فى الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيظاً وهممت : شد ما يغالون فى رواية الأخبار !

وصحت منادياً الخادم فقلت له على الفور : احزم حقائبى . . . سنرحل مبكرين إلى القاهرة .

فقال لى مأخوذاً : والغارات يا سيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ الأعمار بيد الله.

وفى أصيل غدى ، كنت أغادر دارى فى القاهرة آخذاً طريقى إلى حىّ الحسين . . . ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفىّ : « مَغْنَى الرشيد » . فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم الكابتن الخاص ، فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفاً ، ثم شدّ حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفنـاء الصغير كما عهدته رطباً مظلماً يظلله عريش كوم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيي القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية الهفهافة وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف . . . واسترعى انتباهى فى

نظراتى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئاً على عصا يظلع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربَيْن ، وصاح صديقى قائلا وقد ضرب كتفى بيده : ما قولك فى أنى عثرت فى مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟

فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعنى بالنظر إليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم : تركتها فى دارى بلندن . . . ولا أدرى ما هو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهززت رأسى أسفاً ، ثم قلت له : أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى أسبانيا من عهود الحضارة الإسلامية فى الأندلس ؟

وكنت أعلم أن لصديقى باعاً واسعاً فى الرسم والتصوير ، فقال لى وهو على حاله منشرح الخاطر : لدىّ طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبى بلندن .

ثم صمت لُحَيْظَةً ، وقال : حينما جُنِّدت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معى شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور . . جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعته يصيح بخادمه « مسرور » : علينا بالشاى .

فقلت له : إنى لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب وما أراك إلا كسابق عهدك فى مَغْنَى الرشيد تتقلب فى أحلام الشرق الهانئة . . . وها هو ذا « مسرور » ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة سانحة وقال : أنا فى إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقول : لقد أرادونى على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم ذعونى أستجم فى حىّ الحسين أنشق عبير الراحة فى مغنى الرشيد ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسى هزًّا ويرنح أعطافى طربا .

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال : ما أجمل أن يقضى الإنسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة وليلة . . . إنى لأشعر بأنى أعيش حقًّا !

وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت مسبحة كانت منا عن كثب ،

وطفقت أعبث بحباتها وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات : ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك . . .

— أى شىء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالمسبحة أعبث : ينقصك شهر زاد !

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتاً ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ثم جمجم : شهر زاد ؟ ويحك من مهذار ! . . . أنّى لى بشهر زاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايلت ابتسامته فى صوت متخافت كأنه آت من مكان سحيق : شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . . بعيدة كل البعد !

وأردت أن أتبين ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا « مسرور » قادماً بصينية الشاى يتخطر بجسمه المتكتل الضخم وعمامته الطويلة التى تكاد تلامس السقف ، فوضع الشاى بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال . . . وصبّ صديق الكابتن الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت كأننا فى شغل بالشراب ! . . . وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت ، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوىّ . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يكشف عن ملامح وسمات . فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليّا ، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر وأهدابهما الوطاف ... ورجعت إلى مجلسى ، فاحتسيت جرعة من قدح الشاى وأنا أقول : صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى . . . !

— أترى ذلك ؟

— أمن وحى الخيال هى أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاغلا بصب الشاى ، ثم قال مهمهما : من وحى الخيال .

— ألم تستلهم بعض السمات من نموذج حىّ ؟

— قلت لك من وحى الخيال .

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت . فقلت أصل ما انقطع من الكلام .

ظننت أن شهر زاد تعوزك فى « مغنى الرشيد » فإذا هى تحتل منه أعز مكان !

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده : لا وقت عندى لشهر زاد يا صديقى المهذار !

— كيف تنفق يومك ؟

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوّى شعره الأملس ويقول : إنى أستجم ، لا أبرح الدار إلا فى الندرة .

— ألا تملّ هذا النمط من الحياة ؟

— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية فعندى « مسرور » يفكهنى بنوادره اللطاف . . وقد أخرج ليلاً فى ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار مقبلاً على المطالعة .

— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادى كله فى هذه الأيام .

— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفح وجداً وصبابة !

فسرح صديقى بصره لحظة أمامه ، وقال : إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبة شاعريته ، لا لوجده وصبابته ، فما لى بالحب شأن .

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟

فسنحت على ثغره ابتسامة وهمهم : تقصد الشيخ جاد الرب أستاذى ... إنه بخير

— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بينى وبينه مدينة واحدة . . . أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر ! أعلى حاله هو ، لم يجدّ فى شأنه جديد ؟

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلاً فى عمله ، مطيلاً لوقته ، ثم قال منحرف البصر عنى : إنه كما تعهد ، لم يحدث له شئ ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه . . .

— ماذا ؟

— زواجه . . .

— عجباً . . . أيتزوج وهو شيخ فإنه نصف بصير نصف سميع نصف حىّ ؟

— هذا ما وقع .

— من تكون تلك التى رماها به القدر ؟

— نور العين . . . ربيبته !

— الطفلة الغريرة التى كنا نضيق ذرعاً بمعابثاتها ؟ . . .

— أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ، إنها تستقبل عامها السابع عشر . . .

— ألم يذرّف الشيخ على السبعين ؟

— لا بأس . . . لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم فى البيت سواها ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بدّاً من أن يبنى بهـا ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه . . .

واسترخى صديقى فى مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان وئيداً مسبل الجفنين .

وعادت الذكريات تطوف برأسى ، ولاحت لى مشاهد من زياراتى قديماً لبيت الشيخ فى صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص .

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لا يتزايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن فى مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق : القهوة يا نور . . .

وما هى إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعد مرة . . . وهى صبية سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع . فإذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول السودانى وهى تخفى بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح !

وبينا أنا فى فيض من هذه الذكريات إذ تقابلت نظراتى ونظرات صديقى المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحلم : ما كان أكثر معاكستها لنا !

وأمسكت عن الكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى

رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب ... ثم قلت : والآن، كيف هى ؟

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف .

وشغل صديقى بوضع الطبّاق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية الشاى وهو يقول لسيده : أذكرك بالموعد . . . لقد أزف . . .

فقلت لصديقى على التو : أعلى موعد أنت ؟

— لا عليك . . . إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

فنهضت قائلا له : بل تذهب لطيتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف العادة . . . إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن مديد . . .

فقال وقد لمّ شعثه ناهضاً : يسعدنى أن تكون معى !

وتهيأنا لمبارحة القاعة . وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يخب صديقى فى قبائه ، ويكوّر على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة . . . وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع الحياة الليلية فى ذلك العهد ، ونحن صامتان نستبين الطريق فى محاذرة واحتراس . . . وبعد لأى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقى يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطارد ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تونسنا حتى باب الحجرة وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح وتهب منه رائحة التبغ . وصفق صديقى الكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتا متداعى النبرات يقول : أهلاً وسهلاً . . .

فدخلنا القاعة ، فإذا هى فى غبرتها وضيقها وحلوكتها . . . كومات من الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً معروقاً ضئيلاً أكثره لحية شعثاء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدى وأبقاها بين يديه وهو يحملق فىّ بعين كليلة محمرة تجردت من الأهداب ، وقال فى صوت لم يصفُ بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة : أهلا بصديقنا الهارب . . . أكذلك تنسانا دهرا ؟

فقلت وأنا أشد على يده : حقًّا غبت عنك طويلا ، ولـكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى من مشاغل ومهام . .

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة أبى العلاء المعرى ؟

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم فى وقت رُوِّعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقى الـكابتن وقد اقتعد حشيته القديمة فى مكانه المألوف : إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته !

فقال الشيخ متضاحكاً : أخشى أن يستبد النوم بأبى العلاء فى محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكى همته لإنجاز تلك الدراسة ، ولـكنه يتمادى فى تكاسله .

فقلت وقد اقتعدت حشيتى المعهودة بجوار كومة من الـكتب : سأستمع لنصحك . . . ادع الله لى أن أوفق !

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب : القهوة يا نور . . .

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطى والنشر ، ثم قال لصديقى الـكابتن : لنبدأ من حيث وقفنا أمس .

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رقاق يحفظها له ، فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينا نحن فى نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمنى ، وألفيتنى أختلس النظر إلى الـكابتن ، فوجدته مطأطىء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت «نور العين» مجلسها عن كثب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها ومجمرتها يتطاير منها عبق البخور . ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض فى حديث العباس ابن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه فى جهد يستدر الإشفاق.

وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ، إذ كنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما

الخمار الهفهاف ، فيخيل إلىَّ أنهما عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بهما وجه ولا جسد . . . نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العِذاب . . . ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن ، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً فى جلسته يعتمد ذقنه بيده فى إطراق وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية ! . . .

وترادفت اللحظات ، ونحن فى هذه الدنيا الغريبة : صديقى مسترسل فى حلمه السحرى يكاد لا يفيق ، وأنا فى جلستى أدير النظر حولى فى هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان فى الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا فى جنح الليل بكنه الحياة . وهذا الصوت الذى يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه ، وهو يقول : أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيًّا صفيًّا للحب ؟ .

ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثياباً   وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل باباً   فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بشئ سوى الصـ   ـدّ فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت : لم يكن العباس إلا قلباً يخفق صبابة ، وروحاً تشفّ نقاء !

فسمعت صديقى الكابتن يهمهم ، وهو على حاله مطرق : ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروى من شعر العباس فى نغمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتن يعلو بهامته يشيّع الشبح الغارب بنظرات خاطفة . . . وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هى طيف هبط علينا حيناً ، ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ، وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية

والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه . . . وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح لنا من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها الممشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء !.. ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتى كلما لا ح بريق تلفتت للقاكا
كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا

وجعل الصوت يرجّع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو مستمتعَين بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وئيداً يطويه السكون والظلام . . .

وخيل إلىّ أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديقى نتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب فى الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معاً صورة العينين ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ؛ وهمست قائلا : فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لى صديقى الكابتن فى صوت هادئ النبرات : إنهما عينان لطيف بعيد . . . بعيد غاية البعد . . . ليس إلى الوصول إليه من سبيل !

وهنا أسبل جفنيه وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى .

وكنت أزور الصديق المستشرق فى الفينة بعد الفينة ما واتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه فى حاجة إلىّ . فى حاجة إلى من يأتنس بوجوده فى دنياه التى

اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفِّس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق .

ولم يجدّ فى برنامج حياتنا جديد : جلساتنا الهادئة فى « مَغْنى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر العباس بن الأحنف ، حيث تقبل علينا « نور العين » بخفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا .

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نوعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد إذ بنجم يهوى محترقاً وقد سطع بريقه سطوعاً يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات . . . فقال صديقى وهو فى وقفته متطلع النظرات : ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! . . . إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرءوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه أو إن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقاً وأدركه الفناء . . . ولكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لا يدرى أحد ، وما كان النجم ليدرى ذلك المصير . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم مما أصابه . . . ثمة يد خفية تدير الكائنات لا تسمو إلى إدراكها العقول والأفهام . . . ألسنا مسيَّرين فى هذا الكون لا مخيَّرين ؟ . . علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد !

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهُوَيْنَى ، وتابع صديقى قوله : أليست أعمر مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التى قضاها من حياته فى مسبح الفلك لتعد تافهة زريَّة إذا قيست بهذه اللحظات التى عاشها وهو يهوى محترقاً فى الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حياة ! . . . شَبِيه بهذا

النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده ، خابى الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث فى أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضوء خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويكمن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شىء فى الوجود !

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقى أنه لايزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذى يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرماً فلا يجد له من متنفّس ... وكان صديقى إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكلّ منه الأقدام ، حتى لقد نتغلغل فى رحاب الصحراء ونكاد نتيه فى شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينيه قليلا إلى حيث نوافذ المنزل يَنْضَحُ منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقد بلغ به الجهد كل مبلغ فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش !

ولما هالنى اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً فى حىّ آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد ، فقال لى : أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به : أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة . . . إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لى وهو يشد على يدى ثم قال : لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار .

وأطرق برأسه وقتاً ثم قال : إنى أذوب حقًّا وأحترق ، ولكن الإنسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . .

وقصدت دار صديقى يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لى : أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لا نبرحها ...

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاى وندخن . وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خالياً منها ، فالتفت إليه على الفور أقول : أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم ، وغمغم : لقد اختفت ... استردها عالم الروح .. ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟!

فملت عليه قائلا : زدنى إيضاحاً ... ما هذه الأحاجى ؟

فرنا إلىّ بعينيه الصافية الزرقة ، وظل وقتاً لا يتكلم ، ثم قال وقد ازورّ ببصره عنى : ألك فى أن تقرأ فصلا من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلىّ مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعّدت فيه بصرى فترة ، وقلت : وأين ابن الأحنف ؟

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال : طويته ... فرغت منه !

— وهل يُطوَى حديث الحب والغزل ؟

فأجابنى وهو على حاله مشرّد النظرات : متى كان فى مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل تحسن صنعا ...

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جَهْوَرِيَّ الصوت ، باذلاً أكبر الجهد فى التفهّم والتمعن والاستخلاص . وألفيتنى أشاركه فى الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقى يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال ؛ وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين ...

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سيّئ إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها فى عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان الصفا يتعمقها أدق تعمق ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهنى شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين والخمار الهفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدى — يأخذ علىّ السبيل ، ويشغلنى بأحاديث مختلفات تطوّح بنا بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين فى جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتنى رحمة لصديقى وإشفاق عليه مما حلّ به ، فأمسكت بيديه وقلت له فى عزم وتأكيد : لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صح عزمى على خطة فى شأنك ..

سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أو أبَيْت . . . نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياما فى إحدى الضواحى الطيبة الهواء . . .

فلم يعقب على كلامى بشئ ، ولم يزد على أن ربّت يدى ملاطفاً ، وهو يبعث إلىّ بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة ...

وفى اليوم الموعود ، وفدت على « مغْنى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمى على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب الدهليز ، حتى أقبل علىّ «مسرور» يزحم الممرّ بجسمه المتكتّل وعمامته الطويلة التى تناطح السقف ، وقال لى مبادراً : لك عندى رسالة من سيدى الكابتن ...

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلىّ ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الكريم

كان من مُقتَرَحِك علىّ أن أستبدل بمثانتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ، فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنالك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك ... هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوماً ؟

محبك المخلص المستعين بالله »

وبارحت الدار والرسالة فى يدى وأنا فى موجة من الذهول والأسى ، دون أن أبادل «مسرورا» أى لفظ . . .

ومضى شهر لم أعلم من نبأ صديقى شيئاً كثر أو قلّ ...

وبينما أنا يوماً فى مكتبى منصرف إلى بعض عملى إذ دق التليفون ، فإذا المتكلم على ما بدا لى جندىّ هندىّ يبلغنى رسالة مقتضبة يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطانى بالجيزة ... وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة ولَهٍ وجزع ، ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى ، فلما بلغتهُ ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تظل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل علىّ ممرض طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة

وأناقة ، وقال : صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد اجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر .

وخطونا إلى حجرة المريض ، فإذا هى حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفى ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجهاً بالغ الشحوب شديد الامتقاع ... وجها لم يكن بالغريب على ... وتقدمت مضطرب الخَطْو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان وقد زيدتا صفاء حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر أن نلتقى !

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشد عليها ، فشعرت بكفّه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتاً أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ما راعنى من حاله .

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فإذا هى عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف ... !

وخيل إلى أن هاتين العينين الحالمتين ، ، وهما ترنوان إلى ، كانتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

محمود تيمور